زوجتي ... !

وفاء ورثاء

للدكتور أحمد زكي أبو شادي

سافر إلى نيويورك يوم الأحد الماضي الدكتور أحمد زكي أبو شادي ليقيم بها هو وأسرته ، وقد أرسل إلينا ليلة سفره هذه القصيدة ومعها كتاب يقول فيه :

« كان بودي أن أزورك مودعاً قبيل مبارحة وطني الذي لم تسمح لي الظروف بخدمته كما أود ، ولكن أحوالي الخاصة لم تمكني من مغادرة الأسكندرية لهذا القصد ، وسأبحر منها مع أولادي على الباخرة فلكانيا Vulcania يوم الأحد ١٤ أبريل وعلى فمي بيت المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم !

وكان بودي لو حملت رسالة توديعي طاقة باسمة لا هذه المرثية الحزينة لزوجتي ولكنها أغلى ما أملكه الآن وقد ارتسمت فيها ذكرياتي وعواطفي وأشجاني »

كتب الله للدكتور السلامة ، ومن عليه في مهجره بطيب الاقامة .

ماذا تُفيدُكِ لوعتي وبكائي ؟ هذا قَضاؤكِ مُؤْذِنٌ بفنائي !
أَسْدَيتِ عمركِ للحياة فأوفت لهفي عليكِ وقد أتيتُ مودِّعاً
زاد المماتُ جمالَه وتناثرتْ كانت حُشاشتيَ المذابةَ حرقةً
فترنحتْ بفجيعتي، وتضوّعتْ وروَتْ مُحيّاً كان جنةَ نِعمتي
وطرحتِ آلامَ الحياة عزيزةً وأقبّلُ الوجه الحبيب ، وطالما
شملَ السلامُ هدوءه وتبدّدت وأكادُ أنسى للمماتِ خشوعه
كم كنتُ أُعلّقُ بالخيال توهماً وبغالطُ القدرَ العتيَّ تقاوُلي
آبيَ اعترافاً بالممات ، كأنني أو أن هذا الموت حق ثابت
أو أن عيشي أن أراكِ بجانبي

مهما هُزلتِ فلا يهدُّ بنائي
ومضيتِ للأبرار والشهداء
فبكيتُ فوق جبينكِ الوضاء
مني الدموعُ عليكِ كالأنداء
وبقيّةَ الكنوز من نَعمائي
بسريرتي ، وتلألأت بوفائي
وملاذ تفكيري ووحي ذكائي
فبدوتِ بين سماحةٍ وصفاء
أودعتُ فيه صبابتي ورجائي
غيرُ السنين، وزال بَرْحُ الدّاء
لما نسيتُ تجلّدي ومضائي
وأرى الشفاءَ ولاتَ حين شفاء
وأنا الخصيمُ لخِدْعةٍ ورياء
لما بكيتُكِ قد أضِلَّ بكائي
إلا على الأحباب والخلصاء

٢٦ ٠٣٣

أعتاضُ باللمحات عن أُغنيّةٍ وعن الحديث العذب بالإيماء
وأعدُّ أنفاساً وهَبْتِ، ذخيرتي وحفيفَ ألفاظٍ همستِ، رخائي
وأمومةُ الألم الدفين وأتّقي علماً به ، وأصدُّه بغبائي
وأكادُ أقسو في مُجانبةٍ له أوليس جسمكِ رمزَ كل نقاء ؟
متنزّهاً عن كل ماشان الورى مترفعاً عن علّةٍ وعناء
حتى صُدمتُ ، ولا كصدمةِ شاهقٍ
متحطمٍ بصخوره الصمّاء
فجنتُ من حُزني وعِفتُ حصانتي
ودَفنتُ كلَّ رجاحتي العمياء !

* * *

لهفي عليكِ زميلتي في رحلتي وشريكتي في الصفو والضراء
لم أرضَ غيري أن يسير مُشيّعاً أو أن تُوزّع حرقتي وعنائي
وكتمتُ نعيكِ، كم أضنّ بذكره وأحوطُه بنُهايَ واستحيائي
لبّيتُ رغبتكِ الزكيةَ دائماً ووعيتُها نبلاً ولطفَ حياء
وجعلتِ مأتمكِ الرهيبَ عواطفي وبخلتُ بالتنويهِ والإفضاء
حتى تفجّر بي الأنين مَلاحماً وجرى النظيمُ بأدمعي ودمائي
ما كنتِ أحسبُ أن يومكِ سابقي أو أن أيامَ الحياةِ ورائي
كنا نُهيّىء للرحيل متاعنا ونُسيّقُ الآمالَ غيرَ بطاء
ونهيبُ بالدنيا لتشهدَ حظنا ونهشُّ للأيامِ والأنباء
ونردُّ عاديةَ الأنامِ تسامُحاً مستغفرينِ لجاحدٍ ومرائي
متسابقين لنملأ الدنيا سَنَى بالحبِّ والإيثارِ والإيحاء
فاذا رحيلكِ للنوى، ووداعنا للحظّ ، والباقي الكليمُ ذَمائي
غدرت بي الدنيا ، كأني لم أصُغْ فيها الثناء فما أفادَ ثنائي
ووهبتها - كرماً - عزيزَ مواهبي فجنتْ عليَّ شهامتي وعطائي
اليومَ أدركُ أيَّ عبءٍ فادحٍ عني رفعتِ وما مدى أعبائي
كم كنتِ أحلمُ بالهناءةِ والرضى لكِ في نهايةِ عُمركِ المتنائي
فأودُّ من قلبي بقاءكِ بعدما افنى وأحسبُ في هواكِ بقائي
وأعدُّ عمركِ وحدهُ عمري وما أرضى سِواكِ من الحياة جزائي
فتناثرَ الحلمُ الجميلُ وأقفرتْ دنياي من حُلمٍ ومن أضواء
وبقيتُ وحدي لاعزاءَ أرومُه والذكرياتُ تزيدُ من بُرحائي
يا طالما ناجيتها في نشوتي واليوم قد أصبحنَ من أعدائي
ما نِعمتي فيها ؟ وأنتِ هي التي جعلتِ بصُحبتها الأسى نعمائي

يامن فُتِنْتِ بكل ما هو رائعٌ ... وخلقتِ ألوان الجمالِ ازائى
ورسمتِ لى دنيا مُنوَّعة الشذى ... قدسيَّةَ الألحانِ والأصداء
وبثثتِ بى حبَّ الطبيعة فاغتدت ... أُمىَ ، أضعْتِ عزاءَها وعزائى
يامن غناؤكِ شدْوُها وحنينها ... وصداهُ فى قلبى الشجى غنائى
لما سكَتِّ تقاطرَتْ عبراتها ... واستسلمتْ للدَّوْعةِ الخرساء
ومضى الرَّبيع مع الشتاء فلم أجد ... إلا مظاهر وحشة وخلاء
تبكيكِ أخلص من وفت لروائها ... وتصوفت بروحها النعماء
ورأت بها الخير اللباب فما شكت ... منها وناجتها أرقَّ نجاء
وتناولت ألَقَ النجوم فأترعت ... منه دنانَ الحب للشعراء
كم ألهمتنى من عُيونكِ صورة ... جمعت أحبَّ عواطفٍ ومرائى
وتبسُّمٌ تتبسَّمُ الدنيا له ... ويغيب عن معنى وعن خيلاء
ورشاقةٌ ممسولةٌ ملحونةٌ ... كقصيدةٍ خلابةٍ عصماء
كم كنت أهتف بالنشيد ولم يكن ... إلا خطوط جمالك الوضاء
تجرى اليراعةُ فى يدى مزهوةً ... بتنزلى ، ويهزنى إملائى
مترعةً بالحبِّ بين ولائمٍ ... للزهر والأمواه والأضواء
وإخالُ فى دعةِ المروج جنانَنا ... وأشيم فى ألقِ الغدير سمائى
أيامَ كنا والشبيبةُ والهوى ... حلفاء فى أمنٍ من الغرماء
أيام كنا نستعيدُ تراءنا ... قُبلا ، ونضحك من غنى وثراء
أيام كنا الحاكمين بأمرنا ... الساكنين منازلَ الجوزاء
أيام كنا ذاهلين عن الرَّدَى ... نجرى ونمرح فى الربى الفيحاء
ونخوض موج البحر ملء دعابة ... متعانقين على هدير الماء
متحمسين كأنما خمرُ الصبا ... خمر الألوهةِ من أعزِّ سماء
متلهفين بكلِّ شىء لذةٌ ... ومطوعين المستحيل النائى
وإذا غضبنا عاد حبك غافراً ... وتعثرت شكواك عند ندائى
وفرحت بى فرح الحبيب بلقه ... قد عادَ بعد مخاطرٍ هوجاء
عشنا السنين كأنها أنشودة ... علويةٌ جلَّت عن الغوضاء
متجددين ، وإذ فقدتكِ لم يكن ... فقدى لغير فتاتىَ الهيفاء
من رامها أهلُ الفنونِ نموذجاً ... للمبدعين ومن لها أهوائى
من صوتها الحلو الشجى سلافتى ... وحنانها العذب السخى دوائى
من لم تدع غير البشاشة وحدها ... تغشى خواطرها لنقدِ الرائى
من أشربت حب الدعابة سمحة ... واستضحكت لمصاعب الأشياء
من لم تر الدنيا سوى تغريدة ... فأبتْ هواجسها أشدَّ إباء
من لم تردَّدْ غير آمالِ الصبا ... لتردَّنى لطلاقتى ورضائى
من عشت أفديها بكل جوارحى ... فإذا الفداء يهونُ وهى فدائى
من علمتنى أن أقدس واجبى ... مهما شقيت فأستطيب شقائى
من لم تودِّعْ فى السقام وفاءها ... للناس حين مضوْا بكلِّ وفاء
من لم تفارقها الشجاعةُ مرة ... حتى الممات ، شجاعة العظماء
فمضت وخلَّتنى وحيداً عابراً ... قفرَ الحياةِ أنوء بالأنواء
هيمان ، قربك وحده مستنقذى ... ظمآن ، ليس سواكِ ريَّ ظمائى
أفتاتُ بالحزنِ المبرِّح راضياً ... وأعافُ كلَّ ملاحةٍ وسناء
وأضمت فى بعد موتك فى الأسى ... وكأنما صُوَرُ الجمال بلائى
من طالما ناجيتها متغزِّلا ... غرداً ، فمات بهاؤها وبهائى
كانت لروحى منك أُنسَ مدامة ... ومجالَ أشواقٍ ونبعَ صفاء
ومثلتِ أنتِ بكلِّ ما أحببته ... فالآنَ أينَ تهافتى ونجائى
أين ابتسامتكِ الشذيةُ بالمنى ... والنورِ حين أهيمُ فى الظلماء
أين ابتداعكِ للحديثِ تفنُّناً ... وتسلسلا يغنى عن الندماء
أين اغتباطكِ بالمروءة والندى ... والعطف والغفران والإسداء
قبرَتْ كما غاب النهارُ أشعةً ... وكأنما أشلاؤها أشلائى
وتركت فى دنيا القساوة والأذى ... متهالكا أمشى على الرمضاء

* * *

قالوا : تصبر ! إن حولك رفقة ... منها ، وحسبك صفوةُ الأبناء
ورثوا مكارم خلقها وسماتها ... إرثاً تُدلُّ به على الآباء !
يا ليتهم عرفوا شمول عواطفى ... ووفاء وجدانى وصدقَ ولائى
شيم شقيت بها وما عف الورى ... فأثارهُمْ شيمى وفرطُ إبائى
وبقيت أسخر من جراحى هازئاً ... بفواجع الآلامِ والأرزاء
مستلهماً من لم تدعنى مرة ... فى الحادثاتِ أضيقُ بالأحياء
فالآن بعد ذهابها ومصابها ... لم يغننى شيمى ولا استعلائى !

* * *

تمضى الحوادثُ والسنونُ وتنقضى ... أممٌ على أممٍ صباحَ مساء
ويظلُّ قلبى هيكلاً لكِ خالداً ... أبداً يرتِّلُ لوعتى ورثائى !

احمد زكى أبو شادى